أعظم الكتب العربية

(٤)

فــوزى خـــضر

فى الطـــب

(طب العيـــون)

الناشر



رقـم الإيـداع : ٩٨/٨٢٤٧
الترقيم الدولى : 5-391-276-977

الناشر
المكتب العربى للمعارف
١٠ ش الفريق محمد رشاد حسن
مصر الجديدة -ميدان الحجاز
ت : ٢٤٢١٥٢٦-٢٤٣٤٣٩٨
فاكس : ٢٤٨٨٦٥٣

تقديم

الكتب هى السجلات التى حفظت معارف البشرية، فنقلت خبرات الأقدمين إلى المحدثين، وساعدت الإنسان على أن يبدأ من حيث انتهى من قبله، وقد أعان هذا على أن تظل حركة التطوير دائمة فى نمو مطرد، وهى تشتمل على خلاصة الخبرات التى جمعها الآخرون، وتعد الكتب اختراعًا متقدمًا جدًّا إذا ما ألقينا نظرة سريعة على مسيرة الإنسان التى امتدت مئات الألوف من السنين.

وقد ابتدأ المؤرخون تاريخ العلم الإنسانى عند العصر الحجرى عندما قام الإنسان الأول بصنع آلات وأدوات وأسلحة من الحجر، ولاشك أنه حاول صناعة تلك الآلات والأسلحة وأخفق فى صناعتها فى بداية الأمر، ثم حاول مرات متتالية، إلى أن توصل إلى مايصلح لاحتياجاته، وهذه الصور البدائية من التجريب أعانت الإنسان على حل مشكلاته، وبالتالى عرف الطريق إلى العلم، وكان ذلك منذ مايقرب من أربعمائة ألف سنة حسب ماتدل الحفريات التى اكتشفها العلماء.

وعرف الإنسان كيف يصور حياته على جدران الكهوف -التى كان يسكنها- منذ حوالى ثلاثين ألف عام، فحفر أشكالاً لحركات يقوم بها، كما حفر صورًا لبعض الحيوانات التى كان يصطادها.

انتقل الإنسان إلى مرحلة أخرى منذ حوالى خمسة عشر ألف عام

حين تحول من جامع للغذاء يلتقط الحبوب والثمار من الأشجار إلى منتج للغذاء إذ عرف الزراعة، ومن هنا عرف الأوقات المناسبة للبذر والغرس والأوقات المناسبة للحصاد، وأدرك العلاقة بين الزراعة وفصول السنة، ومع الاستقرار وازدياد العمران ظهرت معيشة الجماعات.

ومن الجدير بالذكر أن أعظم اكتشاف أفاد البشرية فى العصور البدائية الأولى هو اكتشاف الإنسان للنار، فقد طور هذا الاكتشاف الحياة البشرية تطويرًا مذهلاً.

وانتقل الإنسان بعد ذلك إلى عصر المعدن، ونشأت فئات متخصصة فى استخلاص المعادن من خاماتها، وعرف الإنسان التعدين، وانتقلت الحياة البشرية نقلة كبيرة، فبعد أن كانت أدواته وأسلحته لاتتعدى الحجارة وأخشاب الأشجار انفتحت أمامه دنيا عريضة من المعادن التى أسهمت فى حصوله على أسلحة فتاكة تعينه على القضاء على الوحوش المفترسة بأسلوب فعال وبجهد أقل، كما أسهمت فى تقدمه العلمى باختراع آلات وأدوات يدخل المعدن فى تركيبها.

وتكونت جماعات بشرية كبيرة على ضفاف وادى النيل، ثم نشأت الحضارة الفرعونية فى مصر، فعرف المصريون القدماء الزراعة على أصولها، ومسح الأراضى، والهندسة، وحساب الفيضان، والفلك، وتركيب أعضاء جسم الإنسان والتشريح، والكيمياء، ولعل الأهرامات وفن التحنيط من الشواهد القاطعة على ماوصلوا إليه من رقى علمى،

وكذلك بعض معابدهم ذات المواقع الغريبة، مثل معبد أبى سمبل جنوب أسوان الذى تدخله الشمس مرتين كل عام، مرة فى يوم مولد الفرعون، ومرة فى يوم اعتلائه عرش مصر، وهذا أمر مذهل يدل على ماحققوه من إنجازات جبارة فى علم الفلك، وكان القدماء يسمون المصريين (مادى الحبال)، وذلك لأنهم كانوا يمدون حبالاً، يقسم كل حبل إلى عقد بنسب معينة (٣،٤،٥ على سبيل المثال)، ويستخدمون تلك الحبال فى المساحة والعمران وتعيين الموقع الفلكى لمحور المعبد الذى يريدون تشييده، ويقول "دمقريط الأبديرى" الذى زار مصر فى القرن الخامس قبل الميلاد أنه رأى الاحتفال بمد الحبل، وهو الذى يتم فيه التعيين الفلكى لمحور المعبد بحيث ينطبق على خط الزوال، وذكر أنه رأى أحد الكهنة ينظر إلى النجم القطبى خلال عصا مشقوقة، بينما يقف كاهن آخر معه خيط مثبت فى العصا، ويتحرك الكاهن حتى يرى الخيط والنجم القطبى فى اتجاه واحد، وعند ذلك يضرب كل منهم وتدًا فى الأرض، ثم يمد حبلا بين الوتدين فيتحدد بذلك اتجاه خط الزوال.

وقد قامت الحضارات على ضفاف الأنهار، فكانت الحضارة الفرعونية فى وادى النيل، والآشورية والبابلية فيما بين النهرين، والصينية فى ماوراء النهر، كما قامت الحضارة الفينيقية على الساحل الشرقى للبحر المتوسط، وقامت الحضارة الهندية، والحضارة الفارسية فيما بعد.

وبازدياد العمران تشابكت المصالح فازدهرت التجارة، وتضاربت المصالح حينا آخر فقامت الحروب، وفى الحالتين احتاج الناس إلى العلم، فازدهرت علوم الفلك والرياضيات والتعدين والحساب والطب وغيرها، وتقدم كثير من الصناعات، وتطورت أساليب الزراعة.

وكان لكل حضارة مما ذكرنا عطاؤها الذى أفادت به البشرية بوجه أو بآخر، إلا أنه يهمنا فى هذا المجال أن المصريين والسومريين اخترعوا علامات تدل على حروف الهجاء أو المقاطع الهجائية، أما اختراع حروف الكتابة فقد بدأ فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد عند أهل جزيرة كريت وعند أهل رأس شمرا وأهل سيناء، إلا أن حروف الكتابة التى اخترعها الفينيقيون هى التى كتب لها البقاء، والتأثير فيما بعد، فإنه على مر الزمن أخذ اليونانيون حروف الكتابة الفينيقية، وأصلحوها بأن أضافوا إليها رموزًا جديدة، وجوهر الاختراع الفينيقى هو الدلالة على كل مخرج من مخارج الأصوات بأقل عدد ممكن من العلامات وبدون حدوث لبس، وهكذا اهتدى الفينيقيون إلى التوصل إلى حروف الكتابة ببساطة بالغة، استفادت منها الشعوب السامية الأخرى.

وامتدت مسيرة العلم الإنسانى فانتقلت المعارف التى حققتها الحضارات القديمة إلى الإغريق، وقد بدأت الحضارة الإغريقية -اليونانية- بهوميروس فى القرن التاسع أو الثامن من قبل الميلاد، وبدأ العلم اليونانى بالعالِم طاليس فى القرن السابع قبل الميلاد، ثم فيثاغورس

فى القرن السادس قبل الميلاد، ثم ظهر أبقراط وسقراط وأرسطو فى القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد، وبموت الإسكندر وموت أرسطو بعده بعام واحد سنة ٣٢٢ ق.م تفرق خلفاء الإسكندر فى البلاد، ووقعوا تحت الاضطهاد السياسى، فارتحل معظم العلماء إلى الإسكندرية حيث كان البطالمة يحكمون مصر، وكانوا معروفين بحبهم للعلم ورعايتهم للعلماء، وأنشئت جامعة الإسكندرية القديمة -وبها مكتبة الإسكندرية- فكانت منارًا للعلم عدة قرون، وأنجب العصر الإسكندرى عددًا من العلماء المرموقين أمثال بطليموس وإقليدس وجالينوس وديسقوريدس وهيرون وثاون وابنته هيباتيا وهيروقليس وأرشميدس وغيرهم، ثم وقع اضطهاد دينى بين المسيحيين والوثنيين فهاجر العلماء شرقًا، حيث استقر عدد منهم فى جنوب بساور.

وخَفَتَ التوهج فى شعلة الحضارة اليونايينة بتفرق العلماء فى البلاد المختلفة، وإن ظلت لها بعض الإبداعات الفنية.

ويجدر بنا هنا أن نذكر أن ورق البردى المصرى قد حفظ للأجيال علوم اليونان وغيرهم، فإن اختراع الكتابة قد بلغ قميته الغالية بالنسبة للإنسانية حين اخترع المصريون أوراق البردى التى تفوقت على ماعداها من مواد الكتابة مثل العظام والفخار والعاج والجلد والكتان، إذ إن تلك المواد تظل قطعا غير متصلة ولايمكن الاحتفاظ بها مجموعة لعدة قرون من الزمان، أما ورق البردى فقد أدرك المصريون أنه يمكن لصق كثير من

الصفحات بعضها إلى بعض، كل ورقة فى ذيل الأخرى، فكونوا لفة من الأوراق يمكنها استيعاب أى نص مهما كان طوله سواء كان علميًّا أو أدبيا أو تاريخيا أو غيره، واختلف عرض لفة البردى من ٣ إلى ١٨ قدمًا، بينما توقف طولها على طول النص الذى تحتويه، وأطول بردية موجودة فى العالم هى بردية هاريس رقم ١ التى عرضها ١٦ قدمًا بينما يبلغ طولها ١٣٣ قدمًا، وهى محفوظة فى المتحف البريطانى تحت رقم ٩٩٩٩، ويكفى أن نعلم أن مكتبة الإسكندرية احتوت على مئات الألوف من لفافات البردى التى تشتمل على العلوم والآداب المختلفة لندرك إلى أى مدى وصل العلم والأدب فى العصر الإسكندرى، وبعد اختراع المصريين للبردى بخمسة آلاف سنة تقريبًا، استطاع الصينيون أن يخترعوا الورق الذى أدى دورًا مهما فى نشر المعارف الحضارية فى العالم كله.

ونتيجة للاضطهاد الدينى -كما قلنا- اضطر علماء الإسكندرية إلى الهروب عبر البلاد، وكانت العلوم -آنذاك- مكتوبة بعدة لغات يأتى فى مقدمتها اليونانية، ثم السريانية والعبرية والهندية والفارسية، وهى اللغات التى كانت تجمع المعارف البشرية.

ثم سطع نور الإسلام على العالم، وأخذت تتوسع رقعة الدولة الإسلامية، حتى وصلت إلى مشارف الصين شرقًا، وإلى مشارف فرنسا غربًا، وانتشر الإسلام بين أهل تلك البلاد وانتشرت معه اللغة العربية

التى هى لغة القرآن الكريم واللغة الرسمية للدولة الإسلامية.

وكانت الأمية متفشية، ولم يهتم الناس بتعلم الكتابة إلا فيما ندر، إذ إنهم كانوا يعظمون من شأن الذاكرة، ويعتمدون عليها، ولايشعرون بحاجتهم إلى الكتابة، فهم يحفظون القرآن الكريم، ويحفظون الأشعار، ويحفظون أيام العرب وتواريخهم، وينتقل بينهم مايعرفونه بالرواية، لدرجة أنهم جعلوا أخذ المعلومة من كتاب هى أدنى درجات العلم، بينما أخذه بالمشافهة يعد أعلى درجاته، إذ يكون مصدر المعلومة محققا فى تلك الحالة.

ولم يبدأ التدوين -بمعناه الواسع- إلا فى القرن الثانى الهجرى -الثامن الميلادى- فدوَّن العرب كتب الحديث والأدب والتاريخ، ثم امتد التدوين إلى فروع أخرى مثل الفقة والتفسير وعلم الرجال وغيرها، وبعد ذلك بدأت حركة الترجمة، ثم اتسعت لتشمل كل العلوم التى عرفتها الأمم الأخرى، وترجمت الكتب اليونانية والسريانية والفارسية، وأنشئت المدارس والمكتبات، واهتم الخلفاء بالكتب واهتموا بترجمتها، لدرجة أن الخليفة المأمون كان يدفع وزن مايترجم ذهبًا! وامتد الاهتمام بالترجمة إلى الأسر الثرية مثل أسرة موسى بن شاكر الذى أحضر مترجمين وصرف لهم رواتب حتى يترجموا له كتب العلوم المختلفة، وانتشر التعليم وسار الاهتمام بالعلوم الدنيوية جنبًا إلى جنب مع العلوم الدينية.

وبدأ العرب بدراسة الكتب التى تمت ترجمتها، ثم أخذوا يكتبون شروحًا لها، ويسجلون مختصرات لبعضها، وظهر فلكيون وأطباء وصيادلة، فبنيت المراصد وأنشئت المستشفيات، وأقيمت المدارس التى تدرس فيها الرياضيات وعلم النبات وعلم الحيوان والفلسفة والتاريخ والجغرافيا وغيرها.

بدأت بعد ذلك مرحلة الإبداع العلمى، إذ لم يكتف العرب بما حصلوه من معارف بل أخذوا يطورون تلك المعارف ويبحثون فيها ويضيفون إليها، فبرز منهم كثير من العلماء فى شتى المجالات، وكانوا علامات مضيئة فى تاريخ العلم العالمى، وقامت الحضارة العربية بأيدى أبنائها وعقولهم المستنيرة وإخلاصهم فى عملهم وأبحاثهم، ولا يمكن لأمة أن تتقدم إلا إذا تفانى أبناؤها فى سبيل تقدمها مسلحين بالعلم المتطور والعمل الجاد والأخلاق الكريمة، فالعلم الحديث هو الذى يجعلهم يقفون على أرض معرفية صلبة، والعمل الجاد هو الذى يجعلهم يحققون الإنجاز والإضافة، والأخلاق الكريمة هى التى توفر لهم الأمانة العلمية والعملية، فلا يمكن للعالم الحق إلا أن يكون صادقًا مع نفسه وهو يقوم بأبحاثه، أمينًا فى أدائها وفى الاطمئنان إلى نتائجها.

وإن النظر إلى الحضارة الإسلامية يدعونا للفخر، فقد استطاع أجدادنا أن يقودوا العالم حين أخلصوا العمل وتفانوا فى سبيل العلم، وهذا الأمر يجعلنا نثق فى قدرات العقل العربى على الإبداع، وها هى

ذى النماذج أمامنا تشير إلى أن العرب بدءوا العمل العلمى الجاد على مستوى العالم أجمع، ولعل أسماء مثل د.مصطفى مشرفة، ثم د.مجدى يعقوب، ود.فاروق الباز، ود.أحمد زويل تكون هى بداية الغيث الذى سيعيد للعرب مكانتهم فى مسيرة الحضارة الإنسانية.

وقد طرح الأستاذ ممدوح الغالى فكرة تأليف عدد من الكتب تعرِّف الجيل الحالى بأهم الكتب العربية التى أسهمت فى تقدم البشرية فى كافة المجالات التى كتب فيها العرب أبحاثهم، وتفضل -مشكورًا- بالتحمس لطباعتها ونشرها، للتعريف بما قدمه العرب للعالم، وخاصة أنه ظهر عدد كبير من العلماء -من حدود الصين إلى حدود فرنسا- ألفوا كتبهم باللغة العربية، فكانت من أعظم الكتب التى أفادت الحضارة الإنسانية خلال مسيرتها الطويلة.

وقد جعلت كل كتاب فى علم من العلوم التى أسهمت العرب فى تقدمها، فبدأت الكتاب بنبذة عن ذلك العلم وتاريخه، ثم عرضت عددًا من الكتب العربية المختارة، وقد رأيت أن يعرض كل كتاب من خلال قصة تمهد للحديث عن الكتاب من جهة، وتحقق نوعًا من التشويق للقارئ من جهة أخرى، فتعينه على تقبل الحديث عن مادة ربما لاتكون من ضمن اهتماماته، وقد ذكرت تعريفا بالكتاب ومحتوياته، ثم أهميته، ثم ذكرت نبذة عن مؤلفه.

ولايخفى على القارئ مابذل من جهد فى سبيل جمع مادة للتعريف

بهـذه الكتـب، خاصة أن بعضهـا نـادر الوجود، وبعضها لايوجد إلا فى **المخطوطات، ومنها ماهو فى مصر، ومنها ماهو خارجها، بالإضافة إلى** المراجـع العربيـة والأجنبيـة الخاصـة بـالعلوم وتاريخهـا، والتـى تبـين قيمـة الكتاب وعظمته فى مجال تخصصه، لكن العناء يهون حين يرى الإنسان ثمرة عمله.

وأسـأل الله -عـز وجـل- أن يكـون فـى هـذه الكتـب مـايفيد المطلـع عليها.

والله ولى التوفيق،

فوزى خضر

الإسكندرية (١٤١٩هـ-١٩٩٨م)

طب العيون

البصر من أغلى الحواس التى وهبها الله - عز وجل - للإنسان، وآلة البصر هى العين، لذلك حظيت العين بالاهتمام منذ القدم، وعرف الناس وسائل لجلاء العين مثل الكحل ولبن الرضاع وغير ذلك، واهتم الإنسان بصحة عينيه، ومن المعروف أن قدماء المصريين عظموا من شأن طبيبهم أمحوتب الذى يحتمل أنه كان وزيرًا للملك زوسر فى الأسرة الثالثة أى فى أوائل القرن الثلاثين قبل الميلاد، وجعلوه إله الطب، وكان تأليهه سابقًا على تأليه أسقليبيوس عند اليونانيين.

ويقول المؤرخ الرحالة اليونانى هيرودوت إن صناعة الطب موزعة بين المصريين إلى حد أن كل طبيب يداوى من مرض واحد لا أكثر، والبلاد مملوءة بالأطباء، بعضهم للعين، وبعضهم للأسنان، وبعضهم لأمراض البطن، وبعضهم للأمراض الخفية.

وتؤيد الوثائق المصرية الخاصة بالدولة القديمة (٣٤٠٠-٢٤٧٥ق.م.) ما يقوله هيرودوت، وهذا يعنى أن المصريين القدماء قد عرفوا الطب التخصصى، وقد اختصت بعض المعابد فى العصور الفرعونية بالأغراض الطبية، حيث كان الكهان يستخدمون الوسائل الطبية مع الأدعية الدينية لعلاج المرضى.

وقد أدرك الإنسان قيمة العين منذ الأزل، وكانت العيون ولم تزل

مصدر الإلهام للشعراء، وظلت رسولاً للغرام والمحبة، ومرآةً لما يعتمل في الصدر من أحاسيس الحنان والرفق والرهبة والقلق والغضب والفرحة وغير ذلك.

ولم يهمل العلم شئون العين، فظهر الأطباء الذين عالجوا مايصيبها من أمراض، وكانت الخبرة فى مداواة تلك الأمراض تنتقل من طبيب إلى آخر عن طريق التعليم التلقينى الشفهى، إلى أن بدأت مرحلة تدوين العلوم الطبية فى عهد أبقراط اليونانى الذى يُسمى أبا الطب.

ونلاحظ أن المؤلفات فى طب العيون لم تكن قائمة بذاتها، وإنما كانت عبارة عن أبواب أو فصول ضمتها الكتب التى ألفها الأطباء فى ميدان الطب العام، ثم شهد طب العيون طفرة علاجية على يد جالينوس اليونانى، ولكنه ظل فرعًا ضمن مؤلفات الطب العام، وانتقل إلى العرب بالكينونة نفسها.

وظهر اهتمام العرب بأمراض العيون منذ القدم أيضًا، إذ كان غبار الصحراء من العوامل المؤثرة فى صحة عيونهم، لذلك ظهرت لديهم بعض المعالجات القائمة على التجربة، والتى اكتسبها الكهنة والعرافون جيلاً بعد جيل.

وظهرت المؤلفات الطبية مع صحوة الحضارة الإسلامية، ولكن ظل البحث فى طب العيون ضمن الأبحاث والمؤلفات التى تتناول الطب العام.

فلمـا جـاء القـرن الثـالث الهجـرى/ التاسـع الميـلادى، أوجـدت المؤلفـات الطبيـة المتخصصـة فـى طـب العيـون لنفسـها مجـالاً بجـوار المؤلفات الخاصة، بالطب العام، وربما كان كتاب العشر مقالات فى العين هو أول كتاب يؤلّف على الطريقة العلمية فى هذا الميدان، وقد ألّفـه العـالم العربـى حنيـن بـن إسـحق النسـطورى فـى النصـف الأول مـن القـرن الثـالث الهجـرى، وتوالـت بعـده المؤلفـات المتخصصـة فـى طـب العيـون، ويوجـد فـى كتـاب عيـون الأبنـاء فـى طبقـات الأطباء لابن أبى أصيبعـة ذكـر لاثنين وثلاثيـن كتابًـا متخصصًا فى هذا الفرع من الطب قائمًا بذاته فى طب العيون دون غيره.

ولايقلل هذا من أهمية الأبحاث التى وردت فى كتب الطب العام عـن طـب العين، مثل التى وردت فى كتاب فردوس الحكمة لعلى بن ربن الطبرى، أو الحاوى فى علم التداوى لأبى بكر الرازى، أو القانون فى الطب للشيخ الرئيس أبى على بن سينا، وقد خطا العرب خطوات واسـعة بهـذا الفـرع مـن العلـوم الطبيـة، شـهد بقيمتهـا علمـاء الغـرب أنفسـهم، ويكفـى أن نسترشـد بمـا قالـه د. مـاكس مـايرهوف فـى هـذا المجـال، خـلال تقديمـه لكتـاب العشـر مقـالات فـى العيـن لحنيـن ابـن إسحق، إذا قال :

(ولا مندوحـة لنـا مـن التسليم بأن المؤلفات العربية فى طب العيون – حتى ماجاء منها فى عصر الانحطاط – يفوق بدرجة عظيمة الكتب

التى ظهرت فى أوروبا قبيل سنة ١١٠٠ هجرية، أى ١٧٠٠ ميلادية).

وتتجلى إنجازات العرب فى طب العيون فى اكتشافهم لكثير من أمراض العين التى لم تكن معروفة من قبل، واكتشافهم لعلاج كثير من تلك الأمراض، وتطوير أسلوب العلاج لأمراض أخرى، بالإضافة إلى اكتشاف تركيب العين وكيفية عملها، وقد أسهم فى هذا الاكتشاف الأخير الأطباء من ناحية وعلماء الفيزياء العرب من ناحية أخرى أمثال ابن الهيثم وغيره.

ولعل أعظم كتاب أُلِّفَ فى تاريخ طب العيون هو ذلك الكتاب الذى ألَّفه يوليوس هيرشبرج أستاذ طب العيون فى جامعة برلين بألمانيا فى أواخر القرن التاسع عشر، وأسماه (تاريخ طب العيون) وقد ظل يؤلفه لمدة ٢٥ عامًا، واستقصى فيه طب العيون فى العالم منذ النشأة حتى القرن التاسع عشر، وشهد فيه بالأيادى البيضاء للأطباء العرب فى هذا المجال، وقد عرض كثيرًا من الكتب العربية المتخصصة فى هذا الفرع من العلوم الطبية.

تُرجمت المؤلفات العربية فى طب العيون، واستعانت بها الجامعات الأوروبية فى الدراسة، وجعلتها فيما بعد أساسًا للعلوم الطبية فى هذا الميدان، ثم أضافت إليها مما أدى إلى تطوير هذا العلم.

ولايمكن إنكار فضل علماء الفيزياء فى هذا المجال، ولعل اختراع النظارة الطبية من أهم مظاهر هذا الفضل على طب العيون، ويعد

النظاراتى الهولندى هانز ليبْرشِى (أواخر القرن ١٦ وأوائل القرن ١٧ الميلادى) من أصحاب الفضل الكبير فى هذا المجال.

وامتدت مسيرة طب العيون فى العالم، فتطورت العمليات الجراحية فى العين، وتطورت أساليب العلاج، وأسهمت أجهزة الكشف الطبى بالكمبيوتر فى دقة التشخيص فى كثير من حالات ضعف العيون وأمراضها.

ونتناول فى هذا الكتاب عددًا من الكتب العربية التى تم تأليفها فى طب العيون، والتى أسهمت بالفعل فى تقدم مسيرة هذا الفرع المهم من فروع العلوم الطبية.

وكان العرب يسمون طبيب العيون كحَّالاً حيث الكحل هو مداواة أمراض العين، وطب العيون هو الكِحَالة، والأدوية التى تعالج أمراض العيون هى الأكحال، لذلك ظهرت كتب أخذت عناوينها من لفظة الكحل مثل تذكرة الكحالين، والكافى فى الكحل وغيرهما.

* * *

كتاب

العشر مقالات فى العين

اختفى أحمد عبدالعظيم الشيخ أسبوعًا بأكمله، لم يعرف أحد له طريقًا، سأل عنه الأصدقاء، لكنهم لم يعثروا له على أثر.

وفجأة ظهر أحمد، احتفى به الجميع وسألوه عن سر غيابه المفاجئ، فأبلغهم أنه كان يذهب يوميًّا إلى شاطىء البحر، ظنوا أنه كان يستمتع بالاستحمام فى مياه البحر الدافئة، خاصة أن شهر أغسطس من هذا العام كان شديد الحرارة، لكنه أخبرهم أنه لم يكن يفعل ذلك، وإنما كان يجلس على الشاطىء ينظر إلى المساحة الممتدة من المياه الزرقاء، ويظل على هذا الحال حتى يدخل المساء فيعود إلى منزل استأجره على شاطىء البحر، فيجلس فى شرفته ناظرًا إلى البحر أيضًا فترة طويلة من الليل حتى ينام.

تعجب الأصدقاء وسألوه عن السبب، فأخبرهم أنه يفكر فى مشروع، لكنه لا يريد الإقدام عليه إلا بعد أن يستقر رأيه تمامًا عليه.

سأله محمد المصرى :

أى مشروع هذا يا أحمد؟

فأجابه :

مشروع خاص بإنشاء مكتب للترجمة.

قال محمد :

الأمر لايحتاج إلى كل هذا التفكير ياصديقى، فأنت متخصص فى اللغة الإنجليزية، ومعروف عنك أنك لا تتصدى لعمل مالا وتمنحه مايستحق من الاهتمام والدقة فى الأداء.

قال أحمد :

أنت تعلم أنى شاعر، وأخشى أن ينصب اهتمامى كله فى ذلك المشروع، فيؤثر ذلك على نشاطى الخاص بالشعر.

قال محمد :

على العكس، أنا أرى أن مثل هذا المشروع سوف يساعد فى إثراء نشاطك الشعرى.

سأله أحمد :

كيف ذلك ؟

سوف تتعرف على موضوعات جديدة تقوم بترجمتها، وأنت أدرى الناس بأن أية خبرة يتحصل عليها الشاعر تضيف جديدًا إلى تجربته الشعرية.

تردد أحمد الشيخ، لكن محمدًا المصرى رأى فى عينيه استعدادًا لقبول الأمر، فاستطرد قائلاً:

إن السيرة الحياتية للمترجمين المبدعين تخبرنا بأن الترجمة كانت

معينًا لهم ساعد على إعلان شأن إبداعهم.

سأله أحمد :

مثل من ؟

فأجابه :

مثل حنين بن إسحق ياصديقي، فقد كان طبيبًا بارعًا، وكان مترجمًا حاذقًا، وكان مؤلفًا مجيدًا، وله كتاب نادر يعد رائدًا في مجاله، إذ ساعدته الترجمة على أن يؤلف كتابه على المنهج العلمي الصحيح.

سأل أحد :

أي كتاب هذا يامحمد ؟

فأجابه:

كتاب العشر مقالات في العين.

نظر إليه أحمد متسائلاً فقال محمد :

هل أحدثك عن حنين بن إسحق وعن كتابه ياصديقي؟

قال أحمد : ليتك تفعل يامحمد !

* * *

الكتاب

يُعد كتاب العشر مقالات فى العين الذى ألّفه حنين بن إسحق كتابًا رائدًا فى مجاله، إذ هو أقدم كتاب فى طب العيون تم تأليفه على الطريقة العلمية.

ويوضح عنوانُ الكتاب محتواه، فهو عبارة عن مقالات عشر فى طب العيون، والعنوان الموجود على المخطوطة هو : (كتاب حنين بن إسحق فى تركيب العين وعللها وعلاجها ألّفه على رأى أبقراط وجالينوس فى العلم بكل مايضطر إلى معرفته من أراد أن يداوى علل العين مداواة صواب).

وبيان موضوعات الكتاب حسب ترتيب مقالاته كالتالى :

١- طبيعة العين وتركيبها.

٢- طبيعة الدماغ ومنافعه.

٣- العصب الباصر، والروح الباصر، والبصر.

٤- جمل الأشياء التى لابد منها فى حفظ الصحة واختلافها.

٥- أسباب الأعراض الكائنة فى العين.

٦- علامات الأمراض التى تحدث فى العين.

٧- قوى جميع الأدوية عامة.

٨- أجناس الأدوية للعين خاصة وأنواعها.

٩- مداواة أمراض العين.

١٠- الأدوية المركبة الموافقة لعلل العين.

وربما لايكون عنوان المقالة كافيًا للدلالة على متحواها بدقة، والإشارة إلى ما اشتملت عليه من فروع بحثية فى موضوعها، لذلك سوف نعرض ملخصًا صغيرًا جدًّا لما احتوت عليه كل مقالة من مقالات الكتاب يكون دليلاً إلى معرفة سبل التفكير لدى العلماء العرب فى عرض موضوع ما يخص أمراض العيون.

المقالة الأولى :

يذكر فيها حنين بن إسحق تشريح العين، مهتديًا بما جاء فى المقالة العاشرة من كتاب (فى منافع الأعضاء) الذى ألّفه جالينوس، وقد وقع حنين بن إسحق فى الأخطاء التشريحية نفسها التى وقع فيها جالينوس والتى اتبعه فيها العلماء لفترة امتدت إلى ألف وأربعمائة عام، وربما كان السبب فى ذلك أن اليونان والعرب لم يكن باستطاعتهم تشريح الجثث الآدمية، واعتمدوا فى كثير من معلوماتهم فى ذلك المجال على تشريح الحيوانات، خاصة الدواجن منها، ومن هذا المنطلق وضع حنين بن إسحق عدسة العين البلُّورية (الرطوبة الجليدية) فى وسط المقلة وجعلها عضو البصر الرئيسى، وظن أن أغشية العين وسوائلها (رطوباتها) قد جعلت لحماية وتغذية عدسة العين، وظن أن الشبكية امتداد للعصب الباصر، إذ إن طبيعتها الحقيقية على اعتبار أنها

عضو الإبصار كانت مجهولة، وغير ذلك من الأخطاء التشريحية.

المقالة الثانية:

وصف حنين فى هذه المقالة مخ الإنسان، معتمدًا على ما ورد فى المقالة الثامنة من كتاب (فى منافع الأعضاء) لجالينوس، وبين أن للدماغ خاصتين، الأولى أنه أبرد أغضاء البدن وأكثرها رطوبة، والثانية أنه ابتداء الحس والحركة الإرادية والسياسية، والفعل الذى يفعله الدماغ بآلته (المتمثلة فى النخاع والعصب والعضل) هو الحس والحركة الإرادية، والعصب نوعان : صلب ومنه تكون الحركة الإرادية، وليّن ومنه يكون الحس، والحواس خمس، ألطفها البصر، ويأتى بعده السمع فالشم فالذوق، أما اللمس فهو أغلظ الحواس. والسياسة يفعلها الدماغ بنفسه وهى تعم ثلاثة أشياء : التخيل ويكون فى مقدمة الدماغ، والفكر فى وسطه، والتذكر فى مؤخرة الدماغ.

المقالة الثالثة :

مقالة مطولة، يتناول فيها حنين بن إسحق العصب الباصر وروح البصر، والبصر كيف يكون، ونجد أنه يرفض نظرية أمبدو قليس التى تقول إن شعاعًا ذا تماثيل يترك الجسم ويلتقى بالعين، كما يرفض نظرية هيبارخس التى تقول إن الشعاع البصرى يترك العين ويمتد إلى الأجسام ويلمسها، ونجد حنينًا يأخذ بنظرية أفلاطون التى أخذ بها أرسطوطاليس وجالينوس، وهى تقول إن النور المنعكس من الأشياء

يقابل شعاع البصر النورى فتحدث الرؤية، وشعاع البصر النورى ينبعث من الروح النورى، وهو الذى يجرى من المخ فى العصب الباصر والعدسة وإنسان العين.

المقالة الرابعة :

تحتوى هذه المقالة على خلاصة بارعة تشتمل بإيجاز على ماورد فى كتب جالينوس بشأن علم ترتيب الأمراض وأسبابها وعلاماتها، وقد لخّص ماجاء فى هذا الشأن فى سبعة كتب من كتب جالينوس هى: كتاب فى الفرق، كتاب فى الصناعة الطبية، كتاب فى التجربة الطبية، كتاب فى حفظ الصحة، كتاب فى اختلاف الأمراض، كتاب فى أسباب الأعراض، كتاب فى أسباب الأمراض.

المقالة الخامسة :

تتناول أسباب الأمراض التى تصيب العين، وتشتمل على شرح الأمراض الخاصة بأغشية العين الداخلية وسوائلها، وطول النظر وقصره وغير ذلك من الناحية النظرية، وقد ردد هذه الأجزاء النظرية من كتاب حنين - بنصها - جميع مؤلفى العرب والفرس فى هذا المجال، كما رددها مؤلفو الأتراك فيما بعد.

المقالة السادسة :

مقالة مهمة لأننا لا نجد مصدرًا سابقًا عليها تعرض لكثير مما ورد بها، ويتحدث فيها حنين عن أعراض الأمراض، فيبدأ بما يصيب

الملتحمة، ويسهب فى الحديث عن الرمد، وذكر أنه أكثر الأمراض شيوعًا، وتحدث عن أمراض الجفن، ثم تحدث عن الأمراض التى تصيب القناة الدمعية، والقرنية، وتحدث عن اتساع وانقباض الحدقة، وتكلم ببعض التطويل عن الكتركتا وتشخيصها، ثم تحدث عن الأمراض الخفية للعين مثل الاسترخاء وسد العصب البصرى والإصابات التى تلحقه، وختم المقالة بالحديث عن الأمراض التى تصيب عضلات العين، وشرحٍ نظرىٍّ لسيلان المواد إلى العين.

المقالة السابعة :

يتحدث حنين بن إسحق فى هذه المقالة عن قوى الأدوية المفردة، وهو يتبع فيها ماورد فى كتب جالينوس فى هذا المجال، خاصة كتابه (فى قوى الأدوية المفردة) ويأخذ بتفسيراته بشأن تأثيرها.

المقالة الثامنة :

يذكر حنين قائمة بأسماء الأدوية المفردة الخاصة بعلاج أمراض العيون ومزاياها، وقد بدأ هذه المقالة بقوله :

(اعلم أن أدوية العين منها من النبات ومنها من المعادن ومنها من الحيوان، والتى من النبات منها صموغ مثل الحلتيت والسكبينج والأفربيون والمر والكندر والأفيون والصمغ والكثيراء والبارزد والأزروت والحضض والأشق، ومنها عصارات كعصارة الموفوقسطيذاس والأقاقيا وماء اللفاح وماء البابونج والصبر، ومنها ثمر

مثل العفص، ومنها زهر مثل الزعفران والجلنار والورد، ومنها ورق مثل الساذج، ومنها خشب مثل السليخة والدارصيني وعيدان البطباط، ومنها قشر مثل قشر الكندر وقشر اليبروح، ومنها عنقود مثل الحماما، ومنها سنبل مثل سنبل الطيب.

وأما الأدوية المعدنية فهي الشاذنة والملح والنوشادر والزنجار والإقليميا والبورج والزاج والرصاص والأثمد الكحل والقلقنت والقلقديس والنحاس والأسفيذاج وزهرة النحاس والتوتيا وتوبال الحديد وتوبال النحاس وأبسوريقون.

وأما الأدوية التي من الحيوان فبعضها من رطوباتها كالمرارات واللبن وبياض البيض، وبعضها من أعضائها كالقرون والجندبادستر. وأنا مبيّن لك قوة كل واحد منها بإيجاز».

ويبدأ حنين بن إسحق بعد ذلك في ذكر قوة كل نوع من أنواع الأدوية التي أوردها مثال ذلك قوله عن المر :

(المر : حار، يابس في الدرجة الثانية، جلاّء، ولذلك يجلو الأثر والقروح التي في العين، وليس بخشن).

وبعد أن يفرغ من الحديث عن قوى الأدوية يذكر أجناسها، حيث يوضح أنها سبعة أجناس، مسدِّد، ومفتّح، وجلاّء، معفّن، وقابض، ومنضج، ومخدر. ثم يتحدث عن الأدوية الخاصة بكل جنس وما تحدثه من تأثير في الأمراض المختلفة.

المقالة التاسعة :

تحتوى هذه المقالة على علاج أمراض العين، مع الخوض فى تفسير الأمـراض العامـة مـن الوجهـة النظريـة، وتبـدأ بالانتفاخـات والأورام وعلاجهـا، ثـم الوجع ويقول إنه ينشأ إما من برد أو حر، أو ينشأ من تفـرق الاتصـال، ويعنـى بـه مـايحدث مـن جـروح كـالقطع والحـزق، أو مايحدث من رض نتيجة لضربة أوصدمة. بعد ذلك يذكر حنين بابًا فى عـلاج الرمـد، ثم يتحدث عن علاج الجسا والحكة، ثم علاج الشترة والغدة، وغير ذلك من أمراض العين مثل السيلان والقروح والبثر الذى فى القرنية، والبياض، ونتوء العين،وغير ذلك مع ذكرعلاج كل مرض.

المقالة العاشرة :

تناول فيها حنين بن إسحق الشيافات (وهى مراهم العين) المركبة، وأورد أربعين مركبًا منها، ثم ذكر أربعة أكحال.

* * *

أهمية الكتاب :

ترجـع أهميـة كتـاب العشر مقالات فى العين لحنين بن إسحق إلى كونه أول كتاب فى طب العيون يؤلف على الطريقة العلمية فى العالم أجمع، فهو كتاب رائد، له قيمة علمية رفيعة.

وهو يهتم بطب العيون - خاصة الناحية النظرية منه - حيث عالج المؤلف لتشريح العين وعلم وظائف الأعضاء وعلم تقسيم الأمراض، وعلم الأدوية الطبية، وقد اتبع طريقة اليونان والعرب الأوائل في التأليف الطبي، حيث يتحدث عن المرض الواحد ثلاث مرات، مرة حين يتكلم عن تشخيص المرض ، والمرة الثانية حين يتكلم عن أعراضه، والمرة الثالثة حين يتكلم عن علاجه.

اشتمل الكتاب على ثمانية رسوم بقيت خمسة منها، وهي أول رسوم معروفة لشريح العين، وهي أرقى بكثير من تلك الرسوم التي زينت الكتب الأوروبية في القرون الوسطى. وكان لتلك الرسوم التي احتوى عليها كتاب حنين بن إسحق تأثير كبير على العلماء الذين جاءوا من بعده.

اشتمل الكتاب أيضًا على كثير من المصطلحات اليونانية التي استعان بها علماء الطب العرب فيما بعد، ونقلوها عن حنين.

وقد اقتبس كثير من العلماء فقرات مسهبة من هذا الكتاب ضمنوها مؤلفاتهم، أمثال الرازي وعلي بن عيسى، ورزّين دست الفارسي، وخليفة بن أبي المحاسن السوري، والقوطي الطبيب الأندلسي، وغيرهم.

ويعد كتاب العشر مقالات في العين من الكتب التي أثرت في مسيرة طب العيون في العالم، إذ تمت ترجمته في وقت مبكر إلى

اللاتينية، ثم توالت الترجمات إلى اللغات الأوروبية الأخرى، وكان له مكانه المرموق فى دراسة طب العيون فى جامعات أوروبا عدة قرون من الزمان.

وتوجد مخطوطتان فريدتان لكتاب العشر مقالات فى العين لحنين ابن إسحق، إحداهما محفوظة فى دار الكتب المصرية، والثانية فى لينينجراد بروسيا.

* * *

المؤلف :

هو أبو زيد حنين بن إسحق العبادى النصرانى النسطورى، ولد فى الحيرة من أرض العراق سنة ١٩٤هـ، وكان والده صيدلانيًّا. درس حنين الطب فى مدرسة جنديسابور (خوزستان من أعمال فارس)، وكانت هذه المدرسة فى بداية الأمر معهدًا علميًّا أنشأه سابور الثانى أحد ملوك بنى ساسان فى أوائل القرن الرابع الميلادى، وقد علا شأنها بعد هجرة علماء الإسكندرية إليها.

درس حنين الطب أولاً فى مدرسة جنديسابور على يد الطبيب يحيى بن ماسويه النصرانى المشهور، لكنه كره غطرسة أستاذه، وحدث خلاف بينهما فمضى حنين بن إسحق إلى مكان مجهول، مكث فيه عدة سنوات أجاد خلالها اللغة اليونانية، ثم مضى إلى البصرة

سنة ٢١١هـ. وقد أجاد العربية واليونانية والفارسية بالإضافة إلى السريانية التى هى لغته الأصلية.

دخل حنين فى خدمة الطبيب جبرائيل بن بختيشوع (ت:٢١٤هـ) وهو أشهر الرجال فى أسرة بختيشوع التى عرفت بالطب، وكان أبناؤها أطباء للخلفاء، وكان جبرائيل هو الطبيب الخاص للخليفة المأمون بن هارون الرشيد الذى حكم من ١٩٨ إلى ٢١٨هـ. وكان المأمون مشجعًا للعلماء، وقد عين حنينًا رئيسًا لبيت الحكمة فى بغداد.

بدأ حنين بن إسحق يترجم الكتب، ومن المعروف أن المأمون كان يهب وزن الكتاب المترجم ذهبًا لمن يترجمه ، وكان حنين سريع الترجمة فاهتمت به الحكومة، واهتمت بحنين أيضًا بعض الأسر الثرية التى أولت الترجمة اهتمامها مثل أسرة موسى بن شاكر منجم المأمون الذى كان ينفق خمسمائة دينار شهريًّا على الكتب المترجمة، وهو مبلغ كبير فى ذلك الزمان إذ كان يمثل نفقات أسرة ثرية - ببذخ - لمدة عام كامل.

عاصر حنين بن إسحق عددًا كبيرًا من الخلفاء أمثال المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر بالله والمستعين بالله والمعتز بالله والمهتدى بالله والمعتمد على الله. وكان حنين مبجلاً لدى هؤلاء الخلفاء، وإن كانت قد أصابته نكبتان خلال خلافة المتوكل حُبس فى

الأولى سنة كاملة، وفى الثانية مايقرب من نصف السنة، إلا أن براءته تثبت فى نهاية كل منهما.

قام حنين برحلات علمية طاف خلالها ببلاد الشام والعراق وفلسطين ومصر ساعيًا وراء المخطوطات العلمية اليونانية، حيث كانت الترجمة تتم آنذاك من اليونانية إلى السريانية ثم من السريانية إلى العربية، وكان حنين من المترجمين القلائل الذين يترجمون من اليونانية إلى العربية مباشرة، ويمكننا القول إنه أنشأ مدرسة مصغرة للترجمة عمل فيها هو وولده إسحق وابن أخته حبيش وعدد من تلاميذه أمثال عيسى بن يحيى بن إبراهيم وأبى عثمان سعيد وعيسى بن على وموسى ابن خالد وغيرهم.

وكان حنين بن إسحاق ممارسًا لمهنة الطب متخصصًا فى طب العيون بالإضافة إلى نشاطه الخطير فى مجال الترجمة، وفى مجال التأليف أيضًا إذ ذكر له ابن أبى أصيبعة فى كتابه عيون الأنباء فى طبقات الأطباء أكثر من مائة مؤلَّف منها سبعة كتب فى طب العيون يأتى فى مقدمتها كتاب العشر مقالات فى العيون.

عاش حنين حتى سنة ٢٦٤هـ. وقد تخطى السبعين من عمره، وقام بأولى ترجماته وعمره ١٧ عامًا.

نظر أحمد الشيخ إلى صديقه محمد المصرى مفكرًا، وسأله عن مصدر هذه المعلومات، فذكر له قائمة من الكتب تحدثت عن حنين

ابن إسحق وكتابه مثل عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة، وإخبار العلماء بأخبار الحكماء للقاضى جمال الدين بن القفطى، وموسوعة الأطباء والأعلام وغيرها من الكتب.

لم يوجه أحمد هذا السؤال إلا لكى يعطى نفسه مساحة من التفكير، انتهت بأن قرر فتح مكتب للترجمة، دون قلق على نشاطه الشعرى، بل لقد كانت ترجمة الدواوين الشعرية فى مقدمة نشاط مكتبه، واتصل ببعض دور النشر العالمية للتعاون فى نشر الشعر العربى فى أرجاء العالم.

* * *

كتاب
تَذْكِرَة الكحَّالين

ضحكت الأم طويلاً وهى تتحدث إلى الأب عما يفعله ولدهما بلال، فهو يحبس نفسه فى غرفته ويؤلف كتابًا فى الدوائر الكهربية.

تعجب الأب مما سمع، ولم يأخذ الأمر بالمرح والفكاهة كما أخذته الأم، فإن تأليف الكتب ليس لعبة.

قالت الأم :

لا تعقّد الأمور يا أبا بلال، فالولد قد أنهى عامه الدراسى بنجاح وتفوق، وبدأ العطلة الصيفية وهو متحمس لتأليف كتاب، فلا تحطم رغبته هذه، فهى رغبة جميلة ربما جعلت منه مؤلفًا فى مستقبل الزمن.

قال الأب :

هذه الطريقة لن تجعل منه مؤلفًا أبدًا، كل ما فى الأمر أنه سيبدد وقته بلا طائل، وسيبذل جهدًا لا ثمرة له، ولابد أنه سيشعر بالإحباط حين يرى تفاهة ما كتبه.

هتفت الأم :

لماذا تحكم على ولدك هذا الحكم الظالم، وأنت لم تر ما يكتبه؟

ثم أردفت :

أنت دائمًا هكذا تحطم طموح بلال.

غضب الأب، لكنه ذهب إلى ولده، فطرق باب غرفته، ودخل إليه فسأله بهدوء عما يفعله، أجابه بلال :

أنا أؤلف كتابًا يا أبى فى الدوائر الكهربية.

سأله الأب :

وماذا تعرف عن الدوائر الكهربية ياولدى؟

أجابه ضاحكًا :

أعرف الكثير يا أبى، أعرف الكثير، أم تراك نسيت أننى طالب فى كلية الهندسة؟

قال الأب بجدية:

لم أنس يابلال، ولكن يبدو أنك أنت الذى نسيت أنك لم تزل طالبًا فى السنة الثانية.

سأله : ماذا تعنى يا أبى؟

أجاب الأب :

أعنى ياولدى أن التأليف ليس بالأمر الهيّن كما يتبدى لك من الوهلة الأولى.

قال بلال :

أنا أدرك يا أبى أن التأليف ليس هيِّنًا، وأعلم أنه يحتاج إلى جهد كبير.

قال الأب :

لـم أقصـد مـاذهبت إليـه، وسـوف أوضـح لـك الأمـر أكـثر، فخبّرنى لماذا يؤلف الإنسان كتابًا؟

قال بلال:

لكى يكون لديه كتاب من تأليفه.

قال الأب :

هذا ما توقعته ياولدى، فأنت لا تعلم الجواب.

سأل بلال أباه : فما الجواب إذن ؟

أجابه الأب :

الإنسـان يؤلـف كتابًـا لكـى يضيـف شـيئًا جديـدًا إلـى المجـال الـذى يؤلـف فيـه، ولا يمكـن للإنسـان أن يضيـف جديـدًا إلا إذا اسـتوعب كـل القديم، فهل درست كل الأبحاث الموجودة فى العالم الآن عن الدوائر الكهربية؟

صمت بلال، فاستطرد الأب قائلاً :

لقـد ذكرتنـى بواحـد مـن أطبـاء العيـون اسـمه علـى بـن عيسـى، أراد تـأليف كتـاب وهـو مـن كبـار أطبـاء العيـون، وحين علم أحد الحكماء بذلـك حـذره مـن التـأليف قبـل دراسـة كـل ما كتب فى هذا المجال، فاسـمعنى جيـدًا، فسوف أحدثك عن كتابه الذى ألّفه فيما بعد، وعنه هو شخصيًّا.

الكتاب

يُعد كتاب تذكرة الكحالين الذى ألّفه علىّ بن عيسى الكحّال خلاصة للمعارف الطبية فى طب العيون، فقد درس على بن عيسى عددًا من العلوم، ثم تعمق فى دراسة الطب، وتخصص فى دراسة مايصيب العين من أمراض وما يعالجها، درس كل ماكتبه العرب واليونان والهنود والفرس فى طب العيون، مع ماحصّله من أساتذته وفى مقدمتهم والده الذى كان أكبر أطباء هذا الفرع الطبىّ، بالإضافة إلى ما توصل إليه على بن عيسى بنفسه من مداواة العين خلال ممارسته لهذه المهنة، ونتج عن هذا كله تأليفه كتابه النادر الذى أسماه تذكرة الكحالين، وقد قسمه إلى مقدمة وثلاث مقالات:

المقالة الأولى فى تشريح العين، وقد استفاد فى تأليفها من ثلاثة مصادر: أولهما جميع ماكتبه الأطباء عن أجزاء العين الخارجية والداخلية والعصب البصرى، واتصال ذلك بالمخ، وقد اطلع على الكتب المؤلَّفة فى ذلك بدءًا من المقالة العاشرة من كتاب منافع الأعضاء لجالينوس حتى ما ألّفه معاصروه من كتب. ثانيهما - أى ثانى مصادر على بن عيسى فى تألف المقالة الأولى - كان ما شاهده من كبار الأطباء فى البلدان المختلفة، إذ زار حرّان والشام ومصر وأفريقية ثم عاد شرقًا إلى بلاد خراسان، فرأى كل ما توصل إليه أطباء العيون من

معارف علمية في تشريح أجزاء العين وفى مداواة أمراضها عبر تلك البلاد المتنوعة. ثالثها تشريح على بن عيسى لكثير من عيون الحيوانات والدواجن، مما أعطاه قدرًا من المعرفة بأجزاء العين وعضلاتها وتكوينها وعمل كل جزء ووظيفته.

المقالة الثانية في أمراض العين الظاهرة وعلاجاتها، وقد ذكر على بن عيسى في هذه المقالة جميع أمراض العيون التى عرفها الأطباء حتى عصره مثل الرمد والانتفاخ والقروح والسرطان والشعر الزائد، والشترة للعين الأرنبية وهى قصر الأجفان وارتفاعها حتى لا يمكنها تغطية العين فتصير مثل عين الأرنب، كما ذكر مرض الظفرة، وقال إنه عبارة عن زيادة عصبية تنبت من المآق، وتمتد حتى تنبسط على سواد العين، وتعظم حتى تغطى الناظر وتمنع النظر، كما ذكر الشرناق، وقال إنه جسم شحمى ينبت تحت جفن العين العلوى، وذكر أنه لا يُعالج بغير العملية الجراحية، كذلك ذكر على بن عيسى عملية قَدْحِ الماء من العين، وقال إن الماء الذى يصيب العين أنواع، منه ما لونه شبيه بلون الهواء، ومنه مايشبه لون الزجاج، ومنه ماهو أبيض، ومنه مالونه أسمانجونى، ومنه أخضر، ومنه مائل للزرقة.

وذكر على بن عيسى فى هذه المقالة أمرًا جعل علماء الغرب يقفون مذهولين من عظمة الإنجاز، فقد كان علماء اليونان يسقون المريض خمرًا كثيرة حتى يغيب عن الوعى ثم يجرون له العملية الجراحية، فإذا

أفاق أثناءها جرّعوه مزيدًا من الخمر. أما على بن عيسى فكان من الأطباء المبدعين، إذ اكتشف تركيبة دوائية أسماها (المُرَقِّد) أى المخدِّر، تجعل المريض يغيب عن الوعى، فلا يشعر بأدنى ألم أثناء إجراء العملية الجراحية. **ولا بأس من ذكرها هنا لصعوبة الحصول عليها** إذ إن مخطوطة كتاب تذكرة الكحالين من المخطوطات النادرة وكذلك ترجمته اللاتينية. كان على بن عيسى يصنع خليطًا من عصائر الحشيش والأفيون والزوآن وست الحسن (وهى الشجرة التى تكسو الجدران) ويغمس فيها قطعة من الإسفنج تمتص المادة السائلة المتكونة، ثم يضع قطعة الإسفنج فى الشمس حتى تجف، فإذا أراد استعمالها كان يرطّب قطعة الإسفنج، ويضعها على أنف المريض فيستنشقها، وحينذاك يرقد فلا يشعر بشىء حتى يفرغ من إجراء العملية الجراحية. وبذلك توصل على بن عيسى إلى اكتشاف المخدِّر العام الذى أطلق عليه اسم المرقّد.

المقالة الثالثة فى الأمراض الخفية عن الحس، وهى الأمراض التى لا يشعر المريض بخطورتها بالرغم من وجود علامات تدل على إصابته بها، وهذه المقالة فى غاية الأهمية ليس لما ذُكر فيها من أمراض فحسب، وإنما - أيضًا - لأنها اختُتمت ببيان لأدوية العين من قطورات ومراهم وغيرها. فقد ذكر كثيرًا من الأمراض الخفية عن الحس، وذكر علاماتها وطرق علاجها، ثم ذكر الأدوية فقسمها إلى :

١- أدويـة مليِّنـة : وهـى التى تزيل التصلبات التى قد تصيب العين، مثل شحم الماعز والبقر.

٢- أدويـة مصلِّبـة : ووظيفتهـا عكـس الأدويـة المليِّنـة، مثـل البزرقطونا، والطحلب، وعنب الثعلب.

٣- أدويـة مسـدِّدة : وهـى التـى تسـدِّد مسـام البـدن تسـديدًا يعسـر تفتيحه.

٤- أدويـة مفتِّحـة : وهـى تقـوم بتفتيـح المسـام التـى يبغـى الطبيـب تفتيحها، مثل أصل السوسن، واللوز المر، والترمس، والشيح.

٥- الدواء الجلاَّء : وهو يشبه الدواء المفتِّح للسدد، إلا أنه أضعف منه مثل العسل، والشعير، واللوز الحلو.

٦- الـدواء المخلخـل للجلـد : ويسـتخدم فـى التمهيـد لبعـض العمليـات الجراحيـة فـى العيـن وفـى عـلاج بعـض أمراضهـا، مثـل دهـن الخروع، ويقصد به زيت الخروع، والبابونج.

٧- الـدواء الفتَّـاح لأفـواه العـروق: يستخدم أيضًا فى التمهيد لبعض العمليـات وفـى عـلاج بعض الأمراض، وهذا الدواء غليظ حرِّيف، مثل البصل، والثوم، ومرارة الثور.

أما الأمراض الخفية عن الحس فقد أوضحها بالمقارنة بأمراض العين الظاهرة، ويتجلى ذلك فى قوله :

(الأمـراض التـى تصيـب العيـن منهـا مـايظهر للحس ومعرفتها عسرة،

ومنهـا مـا لايظهـر للحـس، وتُعـرف بـالفكر والتخميـن، والأمـراض التـى تظهر للحس تكون إما فى الحجاب الملتحم وإما فى الأجفان وإما فى المآق وإما فى القرنية وإما فى العنبية وإما فيما بين العنبية والجليدية. أمـا آلام العيـن الخفيـة فهـى تكـون فـى العضـل، أو تكـون فـى العصـب المحـرِّك للعيـن أو للجفـن، أو فـى العصـب الـذى يكـون بـه البصـر، وإن رأينا إنسانًا يرى من قريب ولا يرى من بعيد، علمنا أن ذلك يكون من ضعف الروح النورى - المنبعث من الدماغ - وقلّته، فإن رأينا إنسانًا يرى من بعيد ولا يرى من قريب، أو يرى بالنهار ولا يرى بالليل، علمنا أن ذلك يكون من غِلَظِ الروح النفسانى وكثرة الفضول المخالطة، فهذا مايعرض فى العين من الأمراض الخفية فى حس البصر).

وقد فسّر على بن عيسى كل واحد من هذه الأمراض على حدة، واقترح سبلاً للعلاج كانت متقدمة جدًّا بالنسبة لعصره.

* * *

أهمية الكتاب :

تعـود أهميـة كتاب تذكرة الكحالين الذى ألّفه على بن عيسى إلى عدة أسباب:

أولها : أنه أفضل كتاب تم تأليفه فى طب العيون، لما اشتمل عليه من معارف طبية تغنى عن غيره من الكتب من ناحية، ولما احتواه من أساليب علاجية جديدة من ناحية أخرى.

ثانيها : أنه كان أشهر كتاب عرفه العرب فى هذا المجال، وفى ذلك يقول ابن أبى أصيبعة فى كتاب عيون الأبناء فى طبقات الأطباء:

(على بن عيسى الكحال كان مشهورًا بالحذق فى صناعة الكحل، متميزًا فيها، وبكلامه يقتدى فى أمراض العين ومداواتها، وكتابه المشهور بتذكرة الكحالين هو الذى لابد لكل من يعانى صناعة الكحل أن يحفظه، وقد اقتصر الناس عليه دون غيره من سائر الكتب التى أُلّفت فى هذا الفن، وصار ذلك مستمرًّا عندهم).

ثالثها : ذِكْرُه الكثير من العمليات الجراحية التى تُجرى فى العين.

رابعها : اكتشافه المرقّد، وهو المخدر العام، وفى ذلك يقول الطبيب الألمانى هيرشبرج Hirschberg فى مقدمة ترجمته لكتاب تذكرة الكحالين :

(من الأمور الجديدة التى أحدثها على بن عيسى الكحال استخدامه للتخدير أثناء إجراء العمليات الجراحية فى العين، ولعله أول طبيب فى تاريخ الطب العالمى استخدم التخدير أثناء إجراء العمليات الجراحية).

وتوضح المستشرقة الألمانية زيجريد هونكه الأمر فتقول فى كتابها شمس الله تسطع على الغرب :

(للعرب على علم الطب فضل كبير فى غاية الأهمية، ونعنى به استخدام المرّقد - وهو المخدِّر العام - فى العمليات الجراحية، وكم كان التخدير العربى فريدًا فى نوعه، صادقًا فى مفعوله، رحيمًا بمن

يتناوله، وهو يختلف كل الاختلاف عن المواد المسكرة التى كان الهنود واليونان والرومان يجبرون مرضاهم على تناولها كلما أرادوا تخفيض آلامهم).

خامسها : تدريسه فى جامعات أوروبا لمدة سبعة قرون كاملة، لكونه أكثر الكتب الطبية شمولاً فى دراسة أمراض العين وشرح سبل علاجها.

سادسها : كثرة الترجمات التى تدل على أهمية الكتاب، ورغبة العلماء فى التعرف على ماجاء به من معارف طبية، فقد تمت ترجمته فى وقت مبكر إلى اللاتينية والعبرية، ثم ترجم بعد ذلك إلى كثير من اللغات الأوروبية مثل الإنجليزية والألمانية والفرنسية.. وغيرها.

سابعها : شهادات كبار العلماء فى أرجاء العالم، ونقتطف منها الآتى :

يقول المستشرق الأمريكى وود Wood فى مقدمة الترجمة الإنجليزية لكتاب تذكرة الكحالين :

(على بن عيسى هو أعظم الأطباء العرب فى طب العيون، وكتابه تذكرة الكحالين هو أعظم ما ألّفه العرب فى هذا المجال).

ويقول الألمانى هيرشبرج فى الفصل الذى عقده لكتاب تذكرة الكحالين فى كتابه (مَتْنٌ فى طب العيون العام):

(كان على بن عيسى الكحال هو أول طبيب فى تاريخ الطب

العالمى يستخدم التخدير أثناء العمليات الجراحية).

ويقول ماكس مايرهوف فى مقدمة كتاب العشر مقالات فى العين لحنين بن إسحق :

(كتاب تذكرة الكحالين لعلى بن عيسى هو - إلى حد كبير - أحسن وأوفى كتاب فى طب العيون).

ويقول ألدومييلى فى كتابه العلم عند العرب:

(تذكرة الكحالين بقى المرجع الرئيسى فى أوروبا فى طب العيون بعد ترجمته إلى اللغتين اللاتينية والعبرية).

وغير ذلك من أقوال العلماء التى تثبت ما تحلى به كتاب تذكرة الكحالين من مكانة فى العلم العالمى.

* * *

المؤلف :

ولد على بن عيسى النصرانى الكحال فى منتصف القرن الرابع الهجرى تقريبًا، وكان والده من كبار أطباء العيون فى بغداد، وقد درس على بن عيسى كثيرًا من العلوم، وركز اهتمامه فى العلوم الطبية، ثم رأى أن يتعمق فى دراسة التخصص الذى اختاره والده ألا وهو طب العيون. وقد كان شابًّا مجتهدًا، اطلع على ما كتبه العلماء فى هذا المجال، وتلقى العلم على والده وعلماء عصره، ثم فكر فى تأليف كتاب فى طب العيون، واحتاج إلى بعض المعارف فسافر إلى حرّان،

وكانت تقع - آنذاك - بين بلاد العراق وبلاد الشام، وهناك قابل أحد الكهنة الذى نصحه بعدم التأليف إلا بعد أن يطّلع على كل ماكتب فى العالم عبر كل العصور فى الموضوع الذى ينوى أن يؤلف فيه، وهكذا بدأ على بن عيسى رحلة طويلة استمرت عشرين عامًا، قابل خلالها العلماء المتخصصين الموجودين فى البلاد المختلفة، وقضى الشهور الطويلة فى خزائن الكتب يقرأ كل كلمة خطها العلماء وكل سطر سجلوه فى أمراض العيون وفى سبل مداواتها، وكان يسجل ملاحظات ومعلومات بالإضافة إلى ماتحمله ذاكرته من معارف طبية، زار على بن عيسى بلاد الشام ومصر وشمال إفريقية ثم عاد فاتجه شرقًا حيث دار فى بلاد خراسان، فتعرف إلى علمائها، وقرأ ما كتبه علماء الهنود والفرس القدامى فى علاج العيون، فلما عاد إلى بغداد كان قد جمع علمًا فى هذاالمجال لم يتوفر لأحد فى عصره.

مارس على بن عيسى مهنة الطب، فكان أفضل من يداوى الأمراض التى تصيب عيون الناس، ومكث سنوات طويلة يؤلف فى كتابه الذى أسماه تذكرة الكحالين.

وجدير بالذكر أن على بن عيسى الكحال قد عاش فى ظروف صعبة فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين، كانت ظروف حياته ميسرة فقد كان واحدًا من الأطباء المشهورين والأثرياء المرموقين، ولكن الظروف التى مرت بها البلاد عمومًا كانت تتسم

بالاضطراب سواء فى الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الدينية أو الثقافية، ويوضح الإمام الذهبى فى كتابه تاريخ الإسلام ما عانت منه البلاد بسبب تلاعب السلاطين بمصير البلاد، ويوضح تصادم الاتجاهات الفكرية، فيذكر أنه فى ذلك العصر كان رأس الأشعرية أبا إسحق الإسفراينى، ورأس المعتزلة القاضى عبدالجبار، ورأس الرافضة الشيخ المقتدر، ورأس الكرامية محمد بن الهيصم، ورأس القُرَّاء أبا الحسن الحمامى، ورأس المحدِّثين الحافظ عبدالغنى بن سعيد، ورأس الصوفية أبا عبدالرحمن السلمى، ورأس الشعراء أبا عمر بن دَرَّاج، ورأس المجوِّدين ابن البواب، ورأس الملوك السلطان محمود بن سبكتكين سلطان بلاد غزنة التى هى أفغانستان الآن، وهذا يدل أولاً على وجود هذه الاتجاهات الفكرية، وتواجدها فى المجتمع تواجدًا قويًا ومؤثرًا، ويدل ثانيًا على مقدار التضارب الفكرى الذى عانى منه المجتمع العربى آنذاك، بالإضافة إلى بعض الكوارث الطبيعية مثل ماحدث سنة ٣٧٨هـ. حين عصف بالبصرة حر وسموم، وهبت ريح عظيمة بفم الصلح أغرقت السفن وبخّرت مياه نهر دجلة حتى ظهر قعره للناظرين، وتحطم معظم نخيل العراق، واشتد الغلاء جدًّا ببغداد، ومثل هذه الكوارث كان لها دورها فى انشغال الناس بها، وبالرغم من كل ذلك كان على بن عيسى يرجع دائمًا إلى كتابة تذكرة الكحالين كى يكمل تأليفه.

نال على بن عيسى مكانة رفيعة فى المجتمع البغدادى، وكان من المقربين للخليفة القادر بالله العباسى، وصار أعظم أطباء العيون فى عصره، وسعى إليه الأطباء من أرجاء المعمورة كى يتتلمذوا على يديه بعد أن انتشرت أخبار مداواته لكثير من أمراض العيون التى أعجزت الأطباء، وبعد أن سارت الركبان بأخبار العمليات الجراحية الناجحة التى أجراها.

وقد وهب على بن عيسى نفسه للعلم، فكانت حياته بين المرضى فى المستشفى والتلاميذ خارجها. وبالرغم من أنه لم يؤلف من الكتب غير كتاب تذكرة الكحالين إلا أن هذا الكتاب قد وضعه فى مصاف كبار العلماء المؤلفين فى تاريخ العلم العالمى، فالكتاب كان شاملاً فى مجاله، لدرجة أن الدارسين اكتفوا بهذا الكتاب واستغنوا به عما عداه من الكتب الأخرى التى تعرضت لدراسة أمراض العيون ومداواتها.

عاش على بن عيسى الكحال حتى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى، وحين توفى ترك فراغًا كبيرًا، ولم يعوِّض الناس عن علمه الزاخر غير كتابه الوحيد تذكرة الكحالين الذى كان معينًا للأطباء، استقوا منه طب العيون على أصوله، حيث جمع فيه كل ما ذكره العلماء فى هذا المجال سواء علماء العرب أو اليونان أو الهند أو بلاد فارس، بالإضافة إلى خبرة والده العريضة فى طب العيون وخبرته الشخصية التى أضافت الكثير إلى هذا العلم.

استمتع بلال بحديث والده عن الطبيب على بن عيسى وكتابه تذكرة الكحالين، وعلم أن الإنسان لكى يؤلف فى موضوع يجب عليه أن يدرس ذلك الموضوع دراسة مستفيضة، وأن يطّلع على كل ما كُتب فيه، حتى يكون ما يكتبه ذا قيمة بالنسبة للناس، وهكذا بدأ بلال مرحلة من القراءة المكثفة، فقد كان مغرمًا بالكهربية التى درسها فى كلية الهندسية.

مرت الأيام وصار بلال معيدًا بالكلية، ثم حصل على الماجستير فالدكتوراه، ووجدت أبحاثه طريقها إلى المجالات العلمية، وصار واحدًا من العلماء المرموقين أصحاب المؤلفات التى يشار لها بالبنان.

* * *

كتاب

المنتخب فى علم العين وعللها ومداواتها بالأدوية والحديد

هبطت الطائرة فى مطار الرياض بالمملكة العربية السعودية، وأعلن المذيع عن وصول الرحلة القادمة من مانيلا عاصمة الفلبين.

نظر فيليب من خلال نافذة السيارة وهى تنهب الشوارع به متجهة إلى وزارة الصحة، وطرد من ذهنه ذكريات مؤلمة قريبة.

قدّم أوراقًا فى أحد المكاتب بوزارة الصحة، وعلم أن الإجراءات سوف تستغرق عدة أيام، عليه أن يقضيها فى أحد الفنادق.

اتصل تليفونيًّا بأحد أصدقائه، حيث قضى لديه خمسة أيام، انتهت خلالها إجراءات تسلمه العمل، وتم توزيعه إلى مستشفى الدمام بالمنطقة الشرقية. أقلته الطائرة إلى هناك، وظن أنه يوجد سكن للأطباء، لكنه فوجىء بأنه مطالب باستئجار سكن.

أسعده وجود عدد من الأطباء الفلبيين الذين ساعدوه فى البحث عن سكن، وسريعًا ماكان يقطن مع اثنين من الأطباء فى منزل واحد يتكون من طابق واحد.

كان فيليب مجتهدًا فى عمله، وكان طبيبًا ماهرًا، أثبت وجوده فى

وقت قصير، وعرفه أهل الدمام بصفته واحدًا من أبرع الأطباء بالرغم من صغر سنه، وكانت ملاحظة الجميع عليه أنه كثير الصمت.

كان الدكتور عليّ مديرًا للمستشفى، وهو من أبناء السعودية الذين تلقوا تعليمهم فى الخارج، وحصل على بكالوريوس الطب من الولايات المتحدة الأمريكية.

ذات يوم كان الدكتور فيليب نوبتجيًّا، وفوجىء بمجىء الدكتور على إلى المستشفى، وتوقع أنه جاء فى مرور تفتيشى للاطمئنان على سير العمل، وتأكد من ذلك حين جلس معه فى مكتبه.

لكنه اكتشف بعد ذلك أن مجىءالدكتور على كان لسبب آخر غير الذى خطر بباله، فحين هدأ العمل تحدث الدكتور على عن أهمية أن يكون الطبيب خالى البال أثناء أدائه لعمله، حتى لا تكدّر أحزانُه فِكْرَه، فيخطىء التشخيص أو يجانبه التوفيق فى وصف الدواء للمريض، وقال إن من ضمن مهامه بصفته مديرًا للمستشفى أن يكون متابعًا لأحوال الأطباء حتى يتأكد من حسن أداء العمل.

خشى فيليب أن يكون قد أخطأ دون أن يدرى.

فاجأه الدكتور على بسؤاله عن السبب فى كثرة صمته وندرة كلامه حتى مع زملائه الذين هم من بلده.

حاول فيليب أن يتخلص من الجواب، ولكن المدير ألح عليه فلم يجد بُدًّا من التحدث إليه بصدق، فأخبره أنه كان يعانى سنوات طويلة

بسبب ملامحه الطفولية التى جعلت أهل بلده لا يمنحونه الثقة الكاملة فى قدراته الطبية، بالرغم من براعته التامة، وأخبره أنه ارتحل عبر عدة مدن فى الفلبين، ولكن لم تتبدل نظرة الناس إليه، مما اضطره إلى المجئ للعمل فى السعودية، لعله يجد من يقدر مواهبه الطبية بعيدًا عن ملامحه الطفولية.

ضحك الدكتور على.

قطب الدكتور فيليب جبينه، وقال له :

لم أظن أنى أقول مايدعو للضحك، فأنت ألححت علىَّ كى أحكى لك مايشغلنى، وماحدث لى يمثّل مأساة بالنسبة لحياتى.

قال له الدكتور على :

أنا لا أضحك مما حدث، لكنى أضحك لأنه قد حدث من قبل لواحد من أكبر الأطباء العرب.

نظر د. فيليب مستفسرًا فقال د. على :

كان فى بلاد العراق طبيب بارع اسمه عمار الموصلى، مر بالظروف نفسها التى مررت أنت بها يادكتور فيليب.

تعجب د. فيليب وسأله :

أتقصد أن ملامحه كانت طفولية مثل ملامحى ؟

قال الدكتور على :

أجل، وقد اضطره هذا إلى ترك بلاده والهجرة إلى مصر، وهناك نال

شهرة عظيمة، وألّف كتابًا طبيًّا عظيمًا.

طلب د. فيليب من د. على أن يحدثه عن ذلك الطبيب وعن كتابه.

* * *

الكتاب

يُعد كتاب المنتخب فى علم العين وعللها ومداواتها بالأدوية والحديد لعمّار الموصلى من أهم الكتب المتخصصة، إذ يقف - مع كتاب تذكرة الكحالين لعلى بن عيسى - فى مقدمة المؤلفات العربية فى مجال طب العيون.

قسم عمار الموصلى كتابه إلى عدة أبواب تناول فيها عددًا من الموضوعات الخاصة بطب العيون، أهمها :

١- تركيب العين من الخارج ومن الداخل وطريقة الإبصار.

٢- العلل التى تصيب جزءًا أو أكثر من أجزاء العين.

٣- الأدوية التى تعالج أمراض العين وأهمها :

أ- القطور (الأدوية السائلة التى تقطر فى العين).

ب- الدهان.

٤- مداواة علل العين بالحديد ومكوناته.

وقد أسمى عمار الموصلى تركيب العين وكيفية الإبصار بعلم العين. وبذلك جعل للعين علمًا مختصًّا بها، وكان تابعًا لمن قبله فى تفسيره لأجزاء العين الخارجية والداخلية.

ومن الأمور المهمة التى تحدث فيها خلال هذا الباب تفصيل عضلات العين، وعمل كل عضلة، وفى ذلك يقول :

(اعلم أن العين احتاجت إلى عضل يحركها، لتحاذى ما ترى، وذلك أن فيها تسع عضلات، ثلاث منها فى أصل العصبة التى يجرى فيها النور إلى العين لتشدها وتثبِّتها، وست لتحريك العين، فواحدة فى اللحاظ تحركها إلى ناحية الصُّدْغِ، وواحدة فى المآق تحرّك العين إلى ناحية الأنف، وواحدة من فوق تحركها إلى فوق، وواحدة من أسفل تحركها إلى أسفل، واثنتان فيهما عِوَجٌ من فوق ومن أسفل تديران العين).

أما حديث عمار الموصلى عن علل العين فكان مستفيضًا، أوضح فيه الأمراض التى يمكن أن تصيب كل جزء من أجزاء العين، وبيّن الأمراض التى تصيب أكثر من جزء، وقسم الأمراض والعلل تقسيمًا علميًّا بارعًا، مثال ذلك حديثه عن مرض الرمد حيث قال :

(أما الرمد فهو ثلاثة أنواع: أحدها تكدر يعرض فى العين من علة هيجّتها من خارج، مثل الدخان والشمس والغبار والدهن وما أشبه ذلك، والنوع الثانى أشد وأصعب من الأول، وهو فَضْلَة تسيل إلى

الحجاب الملتحِم فتورّمه، وأسباب ذلك ضَعف العين، ويحدث الورم من الانتفاخ والوجع والصلابة، وتكثر فيها الدموع، وتشتد الحمرة، وتمتلىء عروق العين. وأما النوع الثالث من الرمد فهو أشد وأصعب، **تشتد فيه الأعراض التى ذكرناها، ويزيد عليها تورم الجفنين** وانقلابهما، وعسر تحريكهما، ويكون بياض العين أرفع من سوادها).

بيّن عمار الموصلى بعد ذلك طرق المداواة لأمراض العين بالأدوية كالقطورات والمراهم وغيرها، وكذلك طرق مداواتها بالحديد الذى عُرف تأثيره العلاجى منذ عصور قدماء المصريين.

* * *

أهمية الكتاب :

تتجلى أهمية كتاب المنتخب فى علم العين وعللها ومداواتها بالأدوية والحديد لعمار الموصلى فى احتوائه على معلومات قيّمة فى دراسة العين وفى الأمراض التى تصيبها وأساليب تشخيصها، وفى ذكر الأدوية التى ينصح الطبيب باستخدامها.

انتبه العلماء إلى أهمية الكتاب فلم يقتصر تدريسه على مدارس الطب العربية بل امتد إلى جامعات أوروبا ومعاهدها العلمية، فقد تُرجم فى وقت مبكر إلى اللغة العبرية، ثم ترجم بعدها إلى اللغة اللاتينية، وترجم إلى الألمانية ثلاث مرات.

توجد مخطوطات من هذا الكتاب باللغة العربية فى ثلاثة أماكن فى العالم: فى مكتبة الإسكوريال، ومكتبة جريجورى الرابع، ومكتبة لينجراد، وجميعها نسخ ناقصة، والنسخة الوحيدة الكاملة الموجودة الآن بدار الكتب المصرية.

وتوجد أبحاث عن الكتاب توضح أهميته ودوره فى تقدم طب العيون فى العالم، أهمها بحث أحمد تيمور باشا فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق، ومثله أبحاث هيرشبرج، وماكس مايرهوف، وكارل بروكلمان، كما كتب عنه المستشرق الروسى كراتشكوفسكى مع سبع مخطوطات عربية أخرى فى طب العيون وجدها فى مكتبة لينجراد، كذلك كتب عنه فستنفلد فى كتابه تاريخ الأطباء والعلماء العرب، وكتب عنه أيضًا لكلرك فى كتابه تاريخ الطب العربى.

أما ترجماته الألمانية فقام بها ليبرت وهيرشبرج وميتفوخ، وقد أجمع العلماء على أهمية هذا الكتاب لاحتوائه على معارف طبية رفيعة المستوى فى طب العيون، واشتماله على كثير من الملاحظات المفيدة والإشارات المبتكرة فى هذا المجال.

* * *

المؤلف :

هو أبو القاسم عمار بن على الموصلى، ولد فى منتصف القرن الرابع الهجرى تقريبًا فى مدينة الموصل بالعراق، وبها نشأ وتعلم،

ومال إلى دراسة الطب، وتعمق فى تحصيل طب العيون ومارس هذه المهنة بضع سنوات فأجادها وبرع فيها، وصار من أكثر أطباء العيون تمكنًا وهو لم يتعد الثانية والعشرين من عمره، إلا أنه كاد يصل إلى الدرجة التى لا يجد فيها قوت يومه لأنه كان طبيبًا معطلاً عن العمل، وكان السبب فى ذلك عجيبًا ألا وهو صغر سنه من ناحية، وطفولة ملامحه من ناحية أخرى مما كان يوهم من يراه أنه لم يزل صبيًّا بالرغم من أنه كان قد بلغ الثانية والعشرين من عمره، وقد أدى ذلك إلى عدم طلبه لعلاج المرضى، فالمريض كان يبحث عن شيخ حكيم يدل مظهره على خبرة السنين فى المداواة.

ارتحل عمار الموصلى إلى بغداد، لكنه لقى فيها مثلما لقى فى الموصل، فعاد إلى بلدته يائسًا، ولكن أحد أصدقائه عاد من رحلة ذهب فيها إلىمصر، فحدثه عن أهلها وحسن معاملتهم للأغراب، وأخبره أنه رأى بها أطباء أصغر منه سنًّا يداوون المرضى. حينذاك ارتحل عمار الموصلى إلى مصر، حيث أحسن رئيس المستشفى استقباله، وأتاح له فرصة العمل فأثبت عمار الموصلى كفاءة منقطعة النظير فى علاج المرضى، وسريعًا ما اشتهر فى أرجاء مصر كلها.

حانت فرصة عمره حين مرض الحاكم بأمر الله الفاطمى، فاستدعاه لمداواته، وأخبره أنه إذا داواه فسوف يقرّ به ويمنحه كل مايحب، وإذا أخفق فى علاجه فسوف يفقأ عينيه حتى لا يتسبب فى دمار عيون

النـاس، ونجـح عمـار الموصلى، وشـفى الخليفـة الحـاكم بـأمر اللـه الفـاطمى بـإذن اللـه، وصـار عمـار أشـهر أطبـاء العيـون فـى مصـر، ونال المكانة الرفيعة والثراء الكبير.

تـزوج عمـار الموصلـى فـى مصـر واسـتقرت حياتـه بها، وأصبح من وجوه البلد المرموقين، فهو صديق الخليفة، وهو طبيبه الخاص وطبيب أسرته فى فرع طب العيون، وكان يمارس مهنته فى المستشفى ببراعة تامة.

ألّـف عمـار الموصلـى كتابـه الـذى أسـماه كتاب المنتخب فى علم العيـن وعللهـا ومداواتها بالأدوية والحديد، وأهداه إلى الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى، ولم يصل إلينا من مؤلفاته غير هذا الكتاب.

عاش عمار الموصلى بعد سنة أربعمائة للهجرة سنوات قليلة، وقيل إنـه عـاش حتـى سـنة أربعمائـة للهجـرة لـم يتعدهـا، لكنـه علـى أى حـال خلّف كتابًا مفيدًا، كان له دوره العميق فى تطوير طب العيون فى العالم كله.

فـرغ الدكتـور علـى مـن حديثـه عـن عمـار الموصلـى وكتابـه، وقـال للدكتور فيليب:

مـن يـدرى، فربمـا كـان المجـد والشـهرة ينتظرانـك فى بلادنا مثلما حدث للطبيب العالم عمار الموصلى؟

سرح د. فيليب فى أفكاره، حقًّا، ألا يجوز أن يكون كل ذلك قد

حدث لكى يجئ إلى المملكة العربية السعودية فيحقق الشهرة، ويحقق أمجادًا طبية يصعب تحقيقها فى الفلبين؟

ودخل أحد المرضى يسنده رجلان، فهب الدكتور فيليب بمنتهى النشاط، وقد صفا ذهنه تمامًا لاستقبال مريضه الذى جاء.

وحينذاك انسحب د. على بهدوء، فقد علم أنه أدى دوره على أكمل وجه.

* * *

كتاب

الكافى فى الكحل

عـاد محمـود مـن مدرسته وهو ثائر الأعصاب، فألقى بحقيبته على الأريكة، وجلس بعنف وهو ينفخ من شدة الغضب. سألته والدته عما يغضبه فقال لها :

أنا لا أدرى ما قيمة هذه المواد المعقدة التى ندرسها؟

قالت له والدته :

إنما تدرسون أساسيات العلوم ياولدى.

قال لها :

وما قيمة علم لن أستخدمه فى حياتى بعد ذلك ، ولن أدرسه فى الكلية التى أنوى الالتحاق بها؟

قالت له :

يـابنى، لابـد أن يكـون الـدارس مُلِمًّا بالعلوم الأساسية، وهكذا كان المتعلمون فى الماضى، وهكذا هم فى كل أرجاء الدنيا، وبعد، لا تنس يا محمود أنك من حلب.

سألها :

وما صلة حلب بما أحدثك عنه يا أمى؟

أجابته :

إن حلب قد أنجبت عددًا كبيرًا من العلماء، وهم لم يكتفوا بدراسة العلم الذى تخصصوا فيه، بل درسوا علومًا كثيرة قبل أن يتخصصوا فى علم واحد، هل سمعت عن خليفة الحلبى؟

قال لها : لا.

فقالت : هو من حلب، درس علومًا لا تمت لتخصصه بصلة، ولكنها أفادته بالتأكيد فى حياته، وفى النهاية ألّف كتابًا من أعظم الكتب فى طب العيون.

قال محمود : أنا لم أسمع عن ذلك الرجل يا أمى، فهل تحدثيننى عنه وعن كتابه ذلك الذى تتكلمين عنه؟

* * *

الكتاب

يعد كتاب الكافى فى الكحل لخليفة بن أبى المحاسن الحلبى من أهم الكتب العربية التى سطرها أطباء العيون العرب، وقد أعلن المؤلف أنه استفاد كثيرًا من كتاب العشر مقالات فى العين لحنين بن إسحق.

قسم خليفة الحلبى كتابه إلى فصول اشتملت على كثير من المعارف الطبية فى عدة مجالات هى :

١- تشريح العين.

٢- وظائف أجزائها.

٣- أمراض العين وسبل اكتشافها.

٤- أدوية العيون.

٥- صنعة اليد فى طب العيون (الجراحة).

٦- الأكحال المستخدمةفى علاج العين.

ذكر خليفة الحلبى أدوية لكل مرض من الأمراض التى تصيب العين، كما ذكر بعض الأدوية التى تصلح فى علاج أكثر من مريض، مثال ذلك قوله :

(صفة دواء نافع من كل علة من علل العين والنغانغ والقروح، وينسب إلى أراسيسطراطس، ويصلح للأورام الحادثة من الريح، والجرب الحادث فى الجفن، والرمد القديم، والقروح التى يعسر اندمالها، وهو نحاس محروق : مثقالان، ومُرٌّ : مثقال، زاج محرق : مثقال، فلفل : نصف مثقال، زعفران : نصف وربع مثقال، شراب من كيوس قوطولى: وهو تسع أواق، ومثلث قوطولى. تسحق هذه الأدوية اليابسة ويرش عليها فى السحق الشراب، فإذا جفت: يصب عليها المثلث، وتسحق به فى إناء من نحاس، وتطبخ بنار لينة، ثم تصير فى إناء نحاس (أى تحفظ فى إناء نحاسى)[1].

ويتبين لنا من هذا الدواء وأمثاله مقدار الصعوبة التى كانت تواجه

الأطباء، ليس فى البحث عن دواء جديد فحسب وإنما فى تحضير الأدوية المعروفة أيضًا، فالدواء يتكون من مواد صلبة ومواد سائلة، ويحتاج إلى أسلوب دقيق لحفظه.

وقد ختم خليفة الحلبى كتابه بالحديث عن الأكحال وهى من فئات الأدوية التى تعالج بها أمراض العيون، وقسّم الأكحال إلى أكحال حارة وأكحال رطبة، وفى ذلك يقول :

"فأما الأكحال الرطبة فإنها تتخذ بالعسل، ودهن البلسان (نوع من النبات)، وزيت عتيق قد لطفت أجزاؤه لتقادمه، وعصارة الرازيانج، ومرارات الحيوانات، وحلتيت، وغيره من الأدوية الشبيهة بها، وكل هذه تنفع من ظلمة البصر ومن ابتداء الماء، لأنها أدوية تلطّف وتسخّن وتنقّى.

وينبغى أن تستعمل هذه الأدوية وغيرها من الأكحال الحارة فى الوقت الذى يكون الرأس فيه غير ممتلىء، ويكون فى ذلك الموضع هواء صافٍ رقيق نقى، ليس بالبارد جدًّا ولا بالحار جدًّا، وبهذا تكون قد وصلت إلى ختام كتاب الكافى فى الكحل، والحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين".

وقد صادف سوء الحظ كتاب الكافى فى الكحل لخليفة بن أبى المحاسن الحلبى، فبالرغم من وجود عدد كبير من مخطوطات الكتاب فى عصره إلا أنها ضاعت جميعها، ولم يتبق غير مخطوطتين، إحداهما

فى مكتبة بنى جامع، والأخرى موجودة فى مكتبة باريس الوطنية تاريخها يرجع إلى سنة ٦٧٤هـ. وقد ترجم الكتاب إلى اللاتينية فى القرن التالى - أى القرن الثامن الهجرى - ولكن النسخة اللاتينية قد ضاعت هى الأخرى، ولم يعد من نسخ للكتاب غير الترجمة الألمانية التى صدرت سنة ١٩٠٥م. وأشرف على طبعها ثلاثة من العلماء هم هيرشبرج وميتفوخ وليبرت، وصدرت هذه الطبعة فى ليبزج.

* * *

أهمية الكتاب :

لابد أن نعلن فى البداية - بكل أسف - أن المؤرخين العرب قد أهملوا ذكر الطبيب العالم خليفة بن أبى المحاسن الحلبى، بينما رفع ذكره المستشرقون أمثال يوليوس هيرشبرج وكارل بروكلمان وليبرت وغيرهم.

تتجلى أهمية كتاب الكافى فى الكحل فى أنه كاف بالفعل لأطباء العيون، فهو يشتمل على خلاصة مافى كثير من الكتب التى تعرضت لتركيب العين ووصف أمراضها وطرق علاج هذه الأمراض، كما اشتمل على عدد من العمليات الجراحية الدقيقة التى تجرى فى العين، ومنها عملية تخليص العين من المياه البيضاء أو الكتاركتا، هذه العملية تجرى الآن فى أقل من ساعة وبجهد قليل جدًا من الطبيب، لكنها

كانت من أصعب العمليات فى الماضى، ويمكننا التعرف على ذلك مما ذكره خليفة الحلبى فى كتابه إذ قال :

(إذا أردت أن تقدح الماء فضع مقدحك فى مؤخر العين عند اللحاظ، واتق مقلة العين بأصبعك، وتكون أصابعك فى أصل المقدح، ثم تثقبها وإياك أن تزوغ المقلة من تحت أصابعك، فيعبر المقدح فى صفاقات القرنية، أو يجرى بين الملتحمة والقرنية فيصل إلى سواد العين فيفجرها، ويعرض من ذلك أيضًا آفات أعظم من انفجارها لأنه ربما نقر الحجاب الملتحم فتنصب الرطوبات إلى العين، فيعرض من ذلك ضربان ووجع شديد لا يكاد يبرأ سريعًا، فإذا ثبتها فاحذر أن يجرى مقدحك بحميته فيصل إلى سواد العنبية من داخل فيخرقها فيفسد ناظرها ولا يكاد يبرأ. وأرفق بالماء حتى تزيحه عن موضعه برفق، واحذر أن تعنف عليه فينشق وعاؤه فيتبدد الماء، فيعسر عليك اجتماعه وإحذاره. فإذا أنت قدحته فضمدها بصفرة بيض وكمون مسحوق واجعله على قطنة وألزمها لعينيه. واحذر أن تنكس رأسه، ولا يسعل، ولا يعطس، ولا يكثر الكلام. ويُطعم خبزًا مبلولاً أو خبزًا ليِّنًا لئلا يكثر مضغه فيتعب أصداغه فتقلق من ذلك عينه. ويُنَوَّمُ المقدوح على ظهره ويعدل رأسه، ولا يتحرك يومه وليلته. ثم ضمدها بالبيض والكمون أيضًا، افعل ذلك ثلاثة أيام، ثم بعد ذلك بصفرة البيض وحدها تمام سبعة أيام. ثم ألطخها بعد ذلك بالأدوية المحللة الحارة

مثل الأدوية التى يقع فيها الزعفران والسنبل وما أشبه ذلك إن شاء الله.
ولا يدخل عينيه شيء من الأكحال الحادة ولا غيرها حتى يمضى له
أربعون يومًا).

يتبين لنا مقدار ما كان يعانيه المريض والطبيب على السواء من إجراء مثل هذه العمليات، لكن المحاولات المستمرة قد أدت فى النهاية إلى تقدم جراحة العيون. ويعود الفضل إلى خليفة الحلبى وأمثاله فى أن يقتحم الأطباء مجال جراحة العيون غير هيابين، ونجح كثير من العمليات، وكان كتاب الكافى فى الكحل لخليفة الحلبى واحدًا من الكتب الرئيسية التى اعتمد عليها العلماء فى تصديهم لإجراء العمليات الجراحية فى العيون.

* * *

المؤلف :

هو خليفة بن أبى المحاسن الحلبى الكحّال، ولد فى أواخر النصف الأول من القرن السابع الهجرى فى حلب ببلاد الشام، درس علوم الدين من تفسير وحديث وبعض الفقه، كما درس اللغة والأدب، ودرس الرياضيات والفلك والفلسفة والتاريخ، وتعمق فى دراسة علم النبات، ثم صار الطب هو شغله الشاغل فركز فيه كل اهتمامه، ودرسه بتعمق كبير، فلما استكمل دراسة الطب فى حلب ارتحل إلى دمشق حيث

تخصص فى طب العيون ودرسها باستفاضة على يد ابن أبى أصيبعة الذى كان من أئمة طب العيون فى عصره.

اشتهر خليفة الحلبى وعلا نجمه، وصار أبرز الأطباء فى علاج العيون، وتوفى سنة ٦٨٠هـ. تقريبًا بعد حياة قصيرة حافلة بكثير من تحصيل العلم وكثير من النجاح فى العمل طبيبًا برع فى علاج الأمراض التى تصيب العين، وخلّف كتابًا مفيدًا هو كتاب الكافى فى الكحل أفاد الطلاب فى بلاد العرب وفى أرجاء أوروبا حين ترجم إلى اللغة اللاتينية فى أوائل القرن الثامن للهجرة، وكان له دور فى تقدم طب العيون لما اشتمل عليه من معلومات قيمة فى هذا المجال.

حين استمع محمود من والدته لحكاية خليفة الحلبى وكتابه المفيد، قام بأخذ حقيبته من على الأريكة، ومضى إلى غرفته، فأخرج كتبه من الحقيبة باهتمام، وعلم أن الإنسان فى مرحلة البناء لابد أن يتعلم كل مايمكن تحصيله من علم.

صدر للمؤلف

دواوين شعرية :

١- أغنية لسيناء (مشترك) -الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥

٢- الترحال في زمن الغربة - المجلس الأعلى للثقافة ١٩٨٤

٣- من سمفونية العشق - المركز القومي للفنون والآداب ١٩٨٥

٤- فصل في الجحيم - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥

٥- ولهية إلى الإسكندرية - مديرية الثقافة بالإسكندرية ١٩٨٨

٦- النيل يعبر المواسم - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩١

٧- قطران من شلال النار - الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٣

٨- مسافات السفر -المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٦

دراسات :

١- إطلالة على الشعر السعودى -نادى جازان الأدبى -السعودية ١٩٩٨٥

٢- أحمد بن ماجد أسد البحار - دار المعارف ١٩٩٥

٣- زرياب عبقرى النغم -مكتبة ومطبعة الغد ١٩٩٧

٤- مبادئ العروض - مطبوعات أصوات معاصرة ١٩٩٧

قصص للأطفال :

١- عمر المختار (طبعة أولى) دار الشرق -دولة قطر ١٩٨٩

(طبعة ثانية) المكتب العربى للمعارف -القاهرة ١٩٩٧

٢- عبد الرحمن الداخل صقر قريش -دار الشرق - دولة قطر ١٩٨٩

٣- الصوت الغريب -دار المعارف ١٩٩٤

الفهرس

رقــم الإيـداع : ٩٨/٨٢٤٧
الترقيم الدولى : 5-391-276-977